

الفصل الخامس

وهم العُروبة

يذكر المؤرخ الدكتور زين زين على لسان أحد "الذميين" أنه "كان في لبنان جماعة صغيرة من الشبان الذين ينتمون الى هذه "النخبة المفكرة" – وجلهم من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية" (تغيّر اسمها فيما بعد وأصبح "الجامعة الأميركية في بيروت"، ومنهم ابراهيم الحوراني ويعقوب صرّوف وإبراهيم اليازجي، وفارس نمر وشاهين مكاربوس) – تطالب أولاً بتحرير لبنان من الحكم التركي. فأنشأوا لهم حوالي 1876 "جمعية ثورية سرية" وراحوا يجتمعون مساء عند الشاطئ الصخري في مكان اسمه الروشة في رأس بيروت للتداول والتشاور في أنجح الوسائل لتحقيق أهدافهم. وكان أخطر ما أقلق نفوس أولئك الشبان هو احتقار الأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأنًا منهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة. غير أن العربي المسلم عندما كان يتكلم عن الامبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول إنها امبراطوريته، لأنها كانت إمبراطورية إسلامية. والواقع أن المسلم لم يكن يشعر بأنه غريب في وطن غريب عنه، بل كان الامر على نقيض ذلك. أما المسيحي فكان يشعر دوماً بأنه واحد من "راعيا" السلطان وأن الحكومة التركية لا يمكن لها أن تكون حكومته.

"لكن لم ينقض زمن طويل حتى شعر أولئك الشبان النصارى أنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكي يكونوا لهم سندا وعونا. فقد كان من المحتم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك كجبهة واحدة مترابطة. ولم يكن هناك من قاسم مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى "العروبة". فالعروبة، كشعار، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعورا بالقومية، وأن توحد أيضا بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك. وعلى هذا الاساس إقتنع الاعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية أن السبيل الوحيد للتحرر من الحكم التركي والسبيل الوحيد للمساواة بينهم وبين المسلمين هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف في وجه الأتراك. ولجأ هؤلاء الاعضاء المسيحيون الى خطة أخرى هي إدخال بعض وجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت. وكان بعض الأعضاء البارزين في هذه الجمعية السرية قد انضم الى عضوية هذه المحافل الماسونية، للإنتماء الى الجمعية السرية. وفي الواقع انضم عدد قليل من المسلمين الى المحافل الماسونية، وعلموا بوجود جمعية سرية. وقد اتفق الجانبان، المسلمون والمسيحيون، على محاربة الظلم التركي واستبداده على أساس العروبة، وعلى مبدأ المساواة بين العرب والأتراك. غير أنهم اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعية وهو طرد الأتراك من ولاية سوريا التي كانت تشمل آنذاك سنجق لبنان المستقل ذاتيا. وبذلك أضاعوا، كما سرّح فارس نمر باشا للمؤلف، "سانحة قلّ أن وجود الزمان يمثلها". وفي زمن ما يقع بين 1882 و1883 أوقفت هذه الجمعية السرية الثورية – التي ظلت تعمل سرا دون أن يعلم أحد بها – نشاطها، وأحرقت وثائقها، واعتبرت نفسها جمعية منحلة. وبعد سنوات قليلة تأسست جمعيات سرية أخرى"¹.

واستمرّ المسيحيون في مسعاهم، ومن بينهم شخص ماروني يدعى نجيب عازوري، نشر في باريس سنة 1905 كتابا باللغة الفرنسية بعنوان "يقظة الأمة العربية في آسية التركية". وأصدر بعد ذلك مجلة شهرية لم تعش طويلا اسمها "الاستقلال العربي". وكان عازوري شديد الميل الى فرنسا والى حضارتها، فلم يكن في وضع يمكنه من أن يتكلم أو أن يكتب بلسان العرب المسلمين، ولكنه كان يذمّ الأتراك ويمتدح العرب.

ولم يكتف نجيب عازوري سعيه لاضفاء طابع علماني على الفكرة العربية الاستقلالية. فقد ورد في بيان "اللجنة الوطنية العربية" احتواء كتابه أن "تركية على عتبة عهد جديد يتمييز بالتغيير الجذري السلمي. فإن العرب الذين استطاع الأتراك أن يخضعوهم لحكمهم الجائر بواسطة تفرّقهم الى شيع تتناحر وتتناذب على أمور دينية ليست بذات أهمية، والذين أصبحوا الآن يعرفون أنهم أمة واحدة يوحد بينها التاريخ والشعور الوطني ووحدة العرق، يرغبون في الانفصال عن الأتراك الذين أخذ السوس ينخر في دولتهم وتأسيس دولة عربية مستقلة"². ويعتقد البيان بأن هذا الأمر يؤدي الى تحقيق الغاية الأساسية، فيضيف: "وبهذا التدبير تكون قد حلت المعضلة الكبرى، أعني فصل الدين الاسلامي عن الدولة المدنية ويكون في هذا الحل خير لجميع الفرقاء"³.

في هذا الوقت بالذات كان زعماء المسلمين وقادتهم الفكريون متمسكين بالولاء للدولة العثمانية، ومنادين، بنوع خاص، بضرورة تطبيق الشريعة الاسلامية. يقول زين: "وبينما كان النصارى في لبنان يطالبون بالاصلاح السياسي وبالاستقلال السياسي، كان مفكرو المسلمين في سائر أنحاء الامبراطورية العثمانية يطالبون بتطهير الامبراطورية من الأدران التي لحقت بها، وبتقويتها عن طريق إصلاح الإدارة فيها، وبالرجوع الى الاسلام الصحيح والمؤسسات الاسلامية الصحيحة. ولذلك كان هؤلاء الزعماء المسلمون من رواد الحركة التي كانت تهدف الى قيام "الوحدة الاسلامية". وكان من أشهرهم الشيخ محمد عبده (1849 – 1905) وعبد الرحمن الكواكبي (1849 – 1902) ومحمد رشيد رضا (1865 – 1935) مؤسس مجلة المنار"⁴.

القومية العربية الاسلامية

لم يأل المسيحيون جهدا في سبيل قومية عربية تسلخ المسلم عن الدولة العثمانية المعبرّة آنذاك عن نواة الوحدة الاسلامية، وتقيم المساواة بين المسلم وغير المسلم، عندما انفجرت الحرب العالمية الأولى، وانهارت الامبراطورية العثمانية الاسلامية وتفككت أوصالها.

في أجواء الحرب شعر المسلمون بقيمة الدعوة القومية العربية. وكانت بذور ذلك الشعور قد بدأت قبلا ضعيفة خجولة بسبب تصرفات جمعية الاتحاد والترقي.

² المصدر السابق، ص 74 - 75

³ المصدر السابق

⁴ المصدر السابق

وقد عرفت بريطانيا كيف تستثمر هذا الشعور وتجعل المسلمين العرب يحاربون الأتراك. وفي هذا الموضوع، وعن المسؤولين الأتراك، يقول شكيب أرسلان عام 1973: "ولقد كان العرب والترك أمة واحدة تقريبا قبل أن تتوجد هذه الفئة الضالة"⁵. وفي ضوء هذا الواقع نفهم عنف البيان الذي أصدره في العراق طالب بك النقيب عام 1912. يقول بيان النقيب: "... إن أعضاء هذه الجمعية (جمعية الاتحاد والترقي) ليسوا بمسلمين وحاشا أن يكونوا، بل إنهم كقار خدعوا الإسلام وحاولوا تمزيقه وتقويضه من أساساته... وهم الذين حاولوا تتركنا والقضاء على لغتنا العربية"⁶.

وقويت الدعوة القومية العربية في نفوس المسلمين.
ونكاد نقول إن القومية العربية فرضت نفسها على المسلمين كمخرج وحيد، لا حيلة لهم بسواه، يعبر عن توقعهم الإسلامي الوحدوي.
يقول "تاريخ البشرية" الذي أصدرته الأونسكو: "إن شعورا إسلاميا نشيطا كان يحرك العروبة"⁷.

ويقول الدكتور زين: "إن السبب الأساسي في خلق الأمة العربية والشعور بالوحدة القومية بين المسلمين العرب يعود إلى الإسلام. وستظل هذه القومية المقترنة والممتزجة بالإسلام منذ تبلورها جزءا لا يتجزأ من نفوس العرب المسلمين ومن عقولهم"⁸.

ويقول فلوري ومنتان: "فالعروبة للمسلم هي، إذا، بمثابة لقب شرف. وهذا ما يفسر إرادة كل مسلم في أن يعلن نفسه عربيا، وإن لم يمض عليه زمان في استعرابه. وكذلك سعى الكثيرون لأن يكتشفوا لأنفسهم أجدادا عربا ولأن يرجعوا إلى أصل عربي، وإلى ربط هذا الأصل بقدر الامكان بالنبي محمد أو، على الأقل، بقبيلة قريش"⁹.

وفي الواقع فإن في الأحاديث النبوية التالية ما يضع العرب والانتماء العربي في موقع عال جدا من الفخر والعظمة: "أحبوا العرب لثلاث: لأنني عربي، ولأن القرآن عربي، ولأن لغة أهل الجنة عربية". و"من أحب العرب فقد أحبني". إذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام.

ويقول أحمد الشرباصي عن الأمير شكيب أرسلان: "ويستقرّ (بعد الحرب العالمية الأولى) في بلدة "مرسين" التركية على مقربة من الحدود السورية، واستمر شكيب حينما في "مرسين"، ولكنه رأى الأتراك يديرون ظهورهم للعرب، ويتنكر حكاهم للخلافة الإسلامية فيلغونها، ويتوجهون اتجاهها "علمانيا" قطعوا الروابط بينه وبين الإسلام والعروبة، فأخذ شكيب يحدد موقفه ويرسم خطته، فإذا هو ينفذ يده من تركية وحكامها"¹⁰.

⁵ أحمد الشرباصي: شكيب أرسلان، سلسلة أعلام العرب، رقم 21، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ص 85

⁶ زين زين، ص 214

⁷ Histoire de l'Humanité, T6, 2ème partie, Laffont, P 1000

⁸ زين زين، ص 136 - 137

⁹ Flory et Mantran: Les régimes politiques des pays arabes. Coll. Thémis, P.U.F. Paris 1968, P3.

¹⁰ الشرباصي، ص 41

وساطع الحصري، طليعة المنادين بقومية عربية علمانية والمتهم باهمال دور الدين الاسلامي في حركة القومية العربية، اضطر الى الاعتراف بأن "الديانة الاسلامية لعبت دورا هاما في تقدم القومية العربية وتوسعها، لأنها:
"اولا: كانت القوة الدافعة لفتوحات العربية التي نشرت اللغة العربية ووسّعت نطاق القومية العربية.

"ثانيا: صارت القوة الواقية التي أكسبت اللغة المذكورة نوعا من المناعة ضد عوامل التفتت والتفرّع... وصانت بذلك القومية العربية من الاضمحلال في عهد انحطاطها الطويل"¹¹.

ولم يبتعد الدكتور إدمون رباط عن هذه القناعة أيضا. فهو يقول: "إن التضامن الديني هو مقدمة للتضامن القومي الذي يمهد السبيل للترابط السياسي ويوحد الصفوف ضد المعتدين الأجانب. ومما لا شك فيه أن الدين الذي لعب هذا الدور في تاريخ العرب هو الاسلام الذي هو "دين ذو روح قومية"¹² ويلتقي الدافع الى نشوء القومية العربية في فترة الحرب العالمية الاولى مع أهداف بريطانية. فعندما كان اللورد كيتشنر، وزير الدولة البريطاني، يذكر "الأمة العربية" في برقيته الى الشريف عبدالله بين الشريف حسين، كان مواطنه وزميله، السر ادوارد غراي، وزير الخارجية، يقول: "لقد فكرنا أنه عندما يزول الحكم التركي عن استانبول والمضائق فإنه ينبغي قيام وحدة إسلامية سياسية ومستقلة في بقعة ما، وذلك لصالح الإسلام ولخير"¹³.

وكل متتبع لحركة القومية العربية لا بدّ له من أن يؤكد:
"أنه عندما أمسك المثقفون المسلمون بتيار الحركة القومية العربية، تراجعوا بوضوح عن مضمونها العلماني والديموقراطي. وتجلّى هذا بشكل واضح، وبشكل واضح جدا، بعد الحرب العالمية الثانية حيث غلبت في الحركة القومية العربية نزعة يمكن أن نسميها نزعة ماضوية..."¹⁴.

القومية العربية اسلام العصر الحديث

يعترف قادة القومية العربية، اليوم، بأن الاسلام جوهرها وركنها الأساسي. يقول المسيحي السوري ميشيل علق، مؤسس حزب البعث العربي، (الاشتراكي، فيما بعد):

إن حركة الاسلام المتمثلة في حياة الرسول الكريم ليست بالنسبة الى العرب حادثا تاريخيا فحسب، تفسّر بالزمان والمكان وبالأسباب والنتائج، بل إنها لعمقها وعنفها واتساعها، ترتبط ارتباطا مباشرا بحياة العرب المطلقة، أي انها صورة

¹¹ محمد عبد الرحمن برج: ساطع الحصري، دار الكاتب العربي، ايلول 1969، سلسلة أعلام العرب، رقم 86، ص 170

¹² لبنان الآخر، مؤتمر حول العلمنة والهوية العربية، مؤسسة الدراسات والبحوث اللبنانية، الطبعة الاولى، بيروت 1976، ص 16

¹³ زين زين، ص 114

¹⁴ لبنان الآخر، ص 154 وهناك أيضا من القوميين العرب الوجوديين من أقرّ بفشل "الرابطة القومية العربية في أن تكون رابطة قومية صرفة، تجمع كل أبناء الأمة جمعا نزيها ناصعا لا يشوبه نقص ما، ويتسم بالمساواة الفعلية لا الشكلية"، وبأن الفكرة القومية العربية تحوّلت "من فكرة معادلة للعلمانية والديموقراطية الى فكرة مرادفة للعصبية الدينية وغير منفصلة عنها..." (جهاد فاضل، مجلة "الحوادث"، 1979/9/21، ص 64).

صادقة ورمز كامل خالد لطبيعة النفس العربية وممكناتها الغنية واتجاهها الأصيل...¹⁵

ويقول أيضا: "إن العرب ينفردون دون سائر الأمم بهذه الخاصة: إن يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية، أو بالأحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة القومية. وما دام الارتباط وثيقا بين العروبة والاسلام، وما دمنا نرى في العروبة جسما روحه الاسلام فلا مجال إذن للخوف من أن يشتت العرب في قوميتهم"¹⁶.

ويقول أيضا: "إن أوروبا اليوم، كما كانت في الماضي تخاف على نفسها من الاسلام. لكنها تعلم الآن أن قوة الاسلام قد بعثت وظهرت بمظهر جديد هو القومية العربية"¹⁷.

ويقول أيضا: "من هذه المفاهيم الأوروبية التي غزت العقل العربي الحديث فكرتان عن القومية والإنسانية فيهما خطأ وخطر. فالفكرة القومية المجردة في الغرب منطقية إذ تقرّر انفصال القومية عن الدين، لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق، لم ينزل بلغاتهم القومية، ولا أفصح عن حاجات بيئتهم، ولا امتزج بتاريخهم، في حين أن الاسلام بالنسبة الى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ولا هو اخلاق مجردة، بل هو أجلي مفصح عن شعورهم الكوني ونظرتهم الى الحياة، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفس بالقدر. وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وآدابهم وأضحى قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربيا ونهمله أو ننفر منه بصفته مسلما. قوميتنا كائن حيّ متشابك الأعضاء وكل تشريح بجسمها وفصل بين أعضائها يهدد بالقتل. فعلاقة الاسلام بالعروبة ليست إذا كعلاقة أي دين بأية قومية. وسوف يعرف المسيحيون العرب، عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الأصيل، أن الاسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها فيحرصوا على الاسلام حرصهم على أئمن شيء في عروبتهم"¹⁸.

أما منيف الرزاز، الذي تولى فترة من الزمن أمانة البعث العربي الاشتراكي بدلا من ميشال عفلق، فيقول: "أما القول بأن اللغة والدين والتاريخ والتراث هي "أسس بائدة"، كما يقول البعض، فلست أدري كيف يمكن أن تبادر هذه الأسس ويبقى ثمة حضارة أو يبقى ثمة عرب"¹⁹.

والمعروف أن حزب البعث العربي الاشتراكي استلم الحكم في سوريا والعراق. وفي عهده صدرت دساتير تنصّ في بنودها الاولى على أن الاسلام دين الدولة، أو أن الفقه الاسلامي مصدر رئيسي في التشريع. وهو الحزب الذي ألغى قانون مساواة المرأة بالرجل، في العراق، الذي صدر في عهد عبد الكريم قاسم. وهو الذي وقّع على بيان الوحدة الثلاثية (بين سوريا والعراق ومصر) عام 1963 وفيه أن الاسلام هو دين الدولة.

¹⁵ ميشال عفلق: في سبيل البعث، دار الطليعة، بيروت 1963، الطبعة الثانية، ص 55

¹⁶ المصدر السابق، ص 55

¹⁷ المصدر السابق، ص 57

¹⁸ المصدر السابق، ص 58

¹⁹ مجموعة مفكرين: دراسات في القومية، دار الطليعة، بيروت 1960، ص 59

ورئيس الدولة السورية حافظ الأسد نفسه طلب الى مجلس الشعب السوري في شباط 1973 تضمين الدستور الجديد نصا صريحا يعلن الاسلام دينا لرئيس الدولة، بالاضافة الى أن مشروع الدستور كان ينصّ على أن الفقه الاسلامي مصدر رئيسي للتشريع.

وبذلك، يؤكد حزب البعث العربي الاشتراكي على تفكيره المنطقي في نظريته الى الارتباط الوثيق بين العروبة والاسلام.

ويقول كمال جنبلاط: "... وكم من الشعوب – وخاصة في بلدان المغرب العربي وليبيا والجزيرة العربية وسواها من الاقطار – قد ركزت صراعاها التحرري على مرتكز الدين والتراث الاسلامي، وهذا اللون من العصبية غير المتعصبة التي تتجلى بمفهوم دار السلام.

"ويجب ألا ننسى في أي حال أن نبي الاسلام محمد، كان، في أن واحد، باعث العروبة ورائدها الاول ونبّيها. وقد تلاحمت الصفتان والرسالتان فيه بحيث يصعب فصلهما فصلا كاملا نسبيا كما يتصور البعض"²⁰.

ويقول أيضا: "ومن تأثير تعاليم المعتقد والتراث الاسلامي أن ما من دولة في العالم العربي استطاعت أن تتجرّد من مفهوم التيقراطية الاسلامية، وأن تعبر بالدولة المستحدثة الى عقلنة ديكرات والعلم الحديث والى علمنة الحكم كما يتوجب أن يكون عليه"²¹.

وفي الملتقى الفكري العربي في الخرطوم الذي نظّمته السودان في آخر العام 1970، والذي ألقى فيه كمال جنبلاط البحث الذي اقتطعنا منه الفقرات اعلاه، شدّد غير خطيب وباحث على وحدة الاسلام والعروبة.

ففي جلسة الافتتاح قال اللواء جعفر محمد نميري، رئيس مجلس قيادة الثورة، رئيس مجلس الوزراء السوداني، بالافتتاح "على منجزات الفكر الانساني، وعلى تجربة الأمة العربية منبع تراثنا الحضاري الروحي، لا فصل بين عروبتة واسلاميته"²².

ثم تبعه منصور خالد، وزير الشباب والرياضة والشؤون الاجتماعية في السودان، فقال: "إن الفكر العربي لمطالب اليوم بدراسة الجذور الفكرية لحركات البعث العربي والاسلامي في الوطن العربي... لقد أفادت تجربة الجزائر، مثلا، في الربط بين فكرة الجهاد والتحرر الوطني، وأفادت – على عمق اتساعها – من فهم الدين كرسالة مقدسة، وأمكن لها بهذا أن توجّه العقيدة الدينية بجماهيرها مرتبطة بالايامن العنيد بالأرض ولتحرير الأرض كترات لا هبة. وقد ارتكز كل هذا على أساس من الفكر الاسلامي متين بدأ بالامير عبد القادر وانتقل عبر بن باديس الى جماعة العلماء... ولو لم أخش المغالاة لاعدته الى ابن خلدون... إن تجربة المهديّة في السودان مثل ناصع آخر... فهي قد اتخذت من فكرة الجهاد في الاسلام عقيدة ورسالة وطنية... وبها وبإسمها باحساس وطني آخر متوارث – استطاعت أن تصبح هذه

²⁰ وقائع الملتقى الفكري العربي في الخرطوم، 15 – 23 آذار 1970، نشرت في العدد 100 من مجلة "المعرفة" التي تصدرها وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية، ص 84

²¹ المصدر السابق، ص 89

²² المصدر السابق، ص 90

الأخرى منفذا لتفسير التاريخ العربي على المستوى الشمولي في فكر الجهاد والتحرير الوطني"²³.

أما بابتكر كرار، وهو سوداني أيضا، فقد أكد في دراسته وفي غير مكان منها أن "الاسلام هو المدخل لبناء الأمة العربية، وهو الأساس العقائدي الحضاري للأمة العربية. وهذا الواقع الحضاري هو الذي حفظ للأمة العربية خصائصها عبر الاعتداءات المتلاحقة عليها في عصور التخلف والجمود والتجزئة"²⁴.

وبنظر الدكتور محمد مجذوب، فإن المغرب جزء من الوطن العربي لأن "أهله عرب لغة وتاريخا ودينا وحضارة"²⁵. ولقد طبع الاسلام العالم العربي الى درجة أن الدكتور مجذوب يقول أيضا: "إن الأغلبية الساحقة في الوطن العربي تدين بالاسلام. وإذا كانت هناك أقلية من المسيحيين فإننا نعتبرها مسلمة فكرا وتاريخا وحضارة"²⁶.

وعندما نشر الدستور المصري سنة 1965 نصت المادة الثالثة منه على أن "الاسلام دين الدولة". وقد تبرر هذا النص وقتئذ بأن "مصر لا تستطيع أن تفعل ما فعلته تركيا الفتاة، فتقدم على اعلان "علمانية الدولة"²⁷ وتتهم الشريعة الاسلامية بأنها "شريعة عتيقة". لماذا؟ لأن مصر، أولا، دولة عربية. ولأن الدين الاسلامي فيها متمكن من قلوب المصريين، متغلغل في أعماقهم. ولأن مصر تقوم في نشر حضارتها على ركن ركين من الدين الاسلامي"²⁸.

ويقول الدكتور محمد محمد حسين: "الاسلام... حقيقة كبرى من حقائق العروبة، وعنصر أصيل من مقومات مجتمعتها وآدابها... نزل كتابه بلغتها وحفظ تراثه كله فيها... ثم إن الاسلام من ناحية أخرى هو الذي وحد العرب ورفع ذكرهم ودفعهم الى طريق المجد وحمل لغتهم الى الآفاق... "وهو الذي جمع الناطقين بها على قيمه ومثله في أخوة زالت معها فوارق الجنس واللون.

"فالاسلام هو الذي حدّد الشخصية العربية على مرّ العصور وربط آخرها بأولها لغة وحضارة وخلّقا. وليس للعروبة تاريخ يعتز به العرب ويجتمعون حوله قبل الاسلام.

"نعم، الاسلام حقيقة كبرى من حقائق العروبة وعنصر أصيل من مقوماتها"²⁹.

وكتب الدكتور إسماعيل مظهر: "إذا قال أحدنا بالجامعة الاسلامية فإنما يعني جامعة عربية روحها الاسلام، وإذا قال أحدنا بالجامعة العربية، فإنما يعني جامعة إسلامية روحها العروبة. وكل قول ينادي هذا القول خطأ. وكل نزعة تخالف هذه النزعة شعبية خسيصة"³⁰.

²³ المصدر السابق، ص 21

²⁴ المصدر السابق، ص 64

²⁵ مجلة "العلوم"، بيروت، حزيران 1962، ص 24

²⁶ المصدر السابق، ص 19

²⁷ في الواقع، فإن "علمانية" تركية ليست سوى علمانية قانونية بحتة، لا يعيشها الأتراك ولا يمارسونها على الصعيد الحياتي.

²⁸ روح الدستور، ص 71 - 72، دار الجمهورية للطباعة، مجموعة اخترنا لك، رقم 35، الجمهورية العربية المتحدة

²⁹ الدكتور محمد محمد حسين: الأدب العربي في ظل القومية العربية، دار الارشاد، بيروت 1969، الطبعة الثانية، ص 12 - 13

³⁰ مجلة "المقتطف"، نيسان 1945 ورد في "لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى"، ص 45

وأخيراً، لا أخيراً، نرى من المفيد أيضاً الاستشهاد بما قاله أحد المرابين اللبنانيين الدكتور عمر فرّوخ: "الإسلام هو في الواقع ديانة القومية العربية. وأنا شخصياً أؤمن بأن هذين المفهومين، أي الإسلام والقومية العربية، هما واحد. في السياسة يقولون إن الإسلام يمثل شطراً كبيراً في العروبة. وليس هذا سوى تساهل من قبل الساسة. في الواقع، لا فرق بين الاثنين ويجب أن يكون الأمر كذلك"³¹.

إن هذه الأقوال والنصوص تستكمل وضوحها بعد الملاحظتين التاليتين. الأولى، أن مقصودنا ليس النفي بأن "العروبة ليست الإسلام ولا الإسلام هو العروبة"، على حدّ ما جاء في توصيات المؤتمر الإسلامي الذي عقد في 14 تشرين الثاني 1976 في دار الفتوى في بيروت³². إننا نؤيد هذا القول بدون تحفظ ونبناه: "العروبة ليست الإسلام ولا الإسلام هو العروبة". الإسلام يتخطى أي حاجز قومي أو وطني أو دولي (بالنسبة إلى "دولة"). والعروبة تيار قومي سياسي لا يمكن أن "يستوعب" الإسلام (الادنى لا يستوعب الأعلى) ويشمل جميع مسلمي العالم.

إنما الذي نقطع فيه هو أن العروبة إسلامية الطابع والجوهر. وما كان لوجودها ولا استمرارها من مجال لولا نسغها الإسلامي. ويوم لا تبقى العروبة إسلامية الطابع والجوهر، يومذاك تذبل وتموت وتضمحل. من هنا نفهم قول منح الصلح: "ولقد كان من الحقائق المقلوبة في الوطن العربي بل من المآسي أن تظهر العروبة الديثة عروبة الوحدة والدخول في حركة التاريخ، ولو عند قطاع محدود من الناس، بأنها خروج على الإسلام أو رفض له أو تنكّر، بينما هي في الحقيقة إعادة بناء الأمة التي أطلقها الإسلام"³³.

وكذلك فإننا لا نعجب حتى من الدكتور أنور عبد الملك، الماركسي الميول، عندما يقول بمناسبة الأحداث في الشرق الأوسط في أواخر العام 1978 ومطلع العام 1979: "ما يحدث الآن في الشرق الأوسط ويسميه البعض "مدا إسلامياً" هو في الواقع مدّ قومي عربي شرقي من قلب الحضارة الشرقية... "إن الإسلام السياسي" هو، مرة أخرى، الدرع الواقية للإرادة القومية العربية"³⁴.

وأكثر من ذلك، فالدين الإسلامي "ذو العلاقة الخاصة والحميمة بالقومية العربية"³⁵، كما يقول أيضاً منح الصلح، جعل تأثير العروبة يتخطى "بلاد العربية" ليمتد إلى بلاد إسلامية أخرى فيلزمها بـ"الوفاء لفلسطين والبرّ بالأمة العربية وتجنب إثارة المعارك الجانبية معها"³⁶. ومثال ذلك موقف الإيرانيين من الشاه محمد رضا بهلوي ومن سياسته. فقد قال الإيرانيون على لسان آية الله روح الله الخميني ما معناه: "إذا كنتم مسلمين فبأي حق تقيمون العلاقات مع إسرائيل وتشترون معها في التخطيط ضد العرب وضد فلسطين وضد القدس؟ إذا كنتم مسلمين فبأي حق تفتحون في هذه الظروف معركة مع الخليج ومع العراق أقل ما يقال فيها إنها معركة ضد بلاد إسلامية تخوض حرباً ضد الصهاينة"³⁷.

³¹ ورد في أطروحة الدكتور هنف

³² باسم الجسر: ميثاق 1943، دار النهار للنشر، بيروت 1978، ص 438

³³ منح الصلح: إسلام الحاكم وإسلام الجماهير، "النهار العربي والدولي"، الاثنين 29 كانون الثاني 1979، الصفحة الأخيرة

³⁴ أنور عبد الملك: "النهار العربي والدولي"، الاثنين في 15 كانون الثاني 1979، ص 5

³⁵ منح الصلح (المرجع رقم 94 اعلاه)

³⁶ المصدر السابق

³⁷ المصدر السابق

أما الملاحظة الثانية فهي الاقرار بأن بعض الأصوات ارتفعت من أجل العروبة أو قومية عربية علمانية "تفصل" الدين عن الدولة. فضلا عن العروبيين المسيحيين الرواد (وأكثرية العروبيين المسيحيين اليوم)، هناك الشيوعيون والماركسيون الممتطون أية ذريعة توصلهم الى هدفهم. ففي "بلاد العربية" المسلمة، تكون "العروبة" فرسهم المدللة. وفي ايران، يكون "الاسلام الشيعي" جوادهم المفضل. كما أن ردة الفعل العرقية للأغلبية السوداء تشكل "الوسيلة النضالية والتقدمية الفعالة" في أفريقيا، الخ... وهناك أيضا أفراد قلائل من المسلمين في لبنان ما انفكوا يؤكدون على عروبة علمانية ثقافية وحضارية. غير أن تقويما موضوعيا لهم ولأقوالهم يوصلنا الى نتيجتين.

الاولى، أن لا فعالية ميدانية لرأيهم ولموقفهم (وبرهانه ازدياد قوة العروبة الاسلامية وانحسار التيار العروبي العلماني). والثانية، أن تأكيداتهم على "العروبة العلمانية" هي تأكيدات مجانية، تعبّر عن أمل وتمن أكثر مما هي مرتكزة على دلائل وبراهين وإثباتات. كما أن بعضهم يتوسلون عبارات فيها كثير من الغموض وعدم الصراحة. لذا لم ينجحوا في خلق قناعة داخلية ووجدانية في نفوس سائر العروبيين. وليس لهؤلاء الأفراد المسلمين، إجمالا، مسؤوليات حزبية أو رسمية أو قيادية جماهيرية. وهم، في أكثريتهم الساحقة، متأثرون بالمفاهيم القومية الأوروبية. ويلاحظ عند أغلبهم برودة ولامبالاة دينية، قناعة وممارسة وسلوكا حياتيا يوميا، أي نوعا من التخلي العملي عن إسلامهم.

رثاء العروبة

هكذا يتبين لنا بوضوح "أن المسيحيين أرادوها عروبة علمانية، بينما أخذها المسلمون عروبة إسلامية"³⁸. ففشل المسيحيون في ايجاد مجتمع سياسي جديد على أساس المساواة بين المسلم وغير المسلم. وكأنما وديع البستاني يعبر عن تلك المرارة وذلك الفشل اللذين اعتمرا قلوب المسيحيين الذين عملوا للعروبة، بقوله:

هذي جناية عمر
لم أدر كيف جناها
وعاش حتى رثاها
غنى العروبة دهرأ

³⁸ محمد علي مكي: نقاط الارتكاز في تحديد الهوية اللبنانية، مطبوعة على الستانسيل، تاريخ 1977/5/5، ص 6، فقرة 11